احـلام شهرزاد

لطـــه حسين

قصص « ألف ليلة وليلة » تعد مصدراً لمسرحية « شهرزاد » ولقصه « أحلام شهرزاد » في آن . فلننظر كيف دخلت « شهرزاد » في عالم الأدب الفـــني في العصر الحديث :

لقد بقيت هذه القصص المعروفـة ، شعبية لا تشع شيئاً في عالم الأدب الفني . اللهم إلا دراسات عن هذه القصص ومؤلفيها وعصور تأليفها ومواطنها .

وكان أول شعاع أرسلته هذه القصص الشعبية إلى عالم الفن الأدبي هو قصيدة العقاد في الجزء الأول من ديوانه الذي صدر في سنة ١٩١٦ وعنوانهـا « شهرزاد أو سحر الحديث » وفيها يقول عن شهريار .

أضمر الشـر للنساء حقوداً — وأبى الحقد أن يكون رشيداً
خفرت عهـده فتـاة فآلى — لا يصونن للنساء عهوداً
فله طلعـة بهـا أجلُ الغيـ — ـد رهين يستنجز الموعودا
زهرات يشمهـا ثم يبري — بشبا السيف غصنها الأملودا
أنفا أن يمس غير شبا السيـ — ـف نحوراً يلهو بها وقدودا

إلى أن يقول : (وهو الاشعاع الجديد الذي أرسلته قصص ألف ليلة وليلة) :

عرفت طبّ دائه « شهرزاد » — فدعته وهو الشقي سعيدا
كان فظـاً فؤاده مغلق النفـ — ـس كظيما لا يستلان عنيدا
فألانتـه بالمقـال فأصغى — ومن القول مايلين الحديدا

وأرته أحاظي الناس من قبـ ـل نحوساً مقسومة وسعودا
فرأى قلبه وكان فريـدا لم يعدْ بعد في القلوب فريدا
جدلاً كان صفوه لا غراما وجـــد الآن قلبه المفقودا

كان هـذا أول دخول قصص ألف ليلة وليلة إلى عالم الأدب العربي الفني في باب الشعر ، ثم كانت سنة ١٩٣٤ فأخرج توفيق الحكيم روايته « شهرزاد » في باب التمثيليات ، ثم كانت سنة ١٩٣٦ فأخرج طـــه حسين وتوفيق الحكيم قصة « القصر المسحور » في باب القصص ، ثم كانت سنة ١٩٤٢ فأخرج طـه حسين وحده قصة « أحلام شهرزاد » .

هذه هي السلسلة التاريخية لدخول « قصص ألف ليلة وليلة » في عالم الأدب وإشعاعها في جو الفن في العصر الحديث .

فأما الطبيعة الفنية لهذا الاشعاع : فقصيدة العقاد التي نقلنا معظم أبياتها تصور لنا المفتاح الذي فتحت به « شهرزاد » قلب « شهريار » وقد كان « مغلق النفس » . ذلك المفتاح في جزء منه ، هو أنها دعته « سعيدا » وهو « الشقي » فألانته بما خيلت له من أنه يتمتع بما يتمناه وما يفتقده فلا يلقاه . وهو في جزء آخر : أنهـــا أرته أحاظي الناس ، فوجد لقلبه أشباها ونظائر ، ولا يجد حظه فريداً في الحظوظ ، ولا قلبه فريداً في القلوب فأصغى إليها جذلا بتصويرها للحظوظ والقلوب لا غراماً بها!

وأما تمثيلية توفيق الحكيم فقـــد بدأها من حيث « أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المبـاح » حيث استحال « شهريار » ذلك الملك الوحشي . إنساناً جديداً « خلقته شهرزاد » خلقاً « جديداً » وكأنمـا كشف لبصيرته « عن أفق آخر لا نهاية له » وإنه ليحاول أن يتخلص من الحدود التي تصده وتقيده عن الانطلاق والمعرفة ، يحاول أن يتخلص من الجسم ومن المكان ، ويحاول أن يحل لغز « شهرزاد » التي تركتـه في حيرة من أمرها شديدة .

وأما قصة «القصر المسحور» فتبدأ بعد تأليف تمثيلية شهرزاد وخلق شخصياتها جميعـــاً : « الملك شهريار ، والملكة شهرزاد ، والوزير قمر ، والعبد ، ومنصور

الجلاد ... الخ » وحيث يشترك طه حسين وتوفيق الحكيم في زيارات لشهرزاد بقصرها المسحور ، وفي شراك ينصبها طـــه لتوفيق ، وينصبها توفيق لطه عند شهرزاد ، وعند أبطال مسرحية شهرزاد . وحيث يقع الجميع في قبضة الزمن وقبضة التاريخ ، فتدور محاورات ومحاكات فلسفية ليس هنا موضع استعراضها ونقدهـا على كل حال .

وأما قصة « أحلام شهرزاد » فتبدأ بعد تسع ليال من حيث « أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح » وحيث طال الصمت على « شهريار » واشتاق إلى أحاديث شهرزاد التي خلقت منه إنسانا جديداً « وتركت في نفسه وأمام عقلهمن الألغاز والأسرار ما يكلفه الجهد المضني » وحيث يحاول أن يحل لغز « شهرزاد » التي تركته في حيرة من أمرها شديدة » .

ولكن شهريار طـه حسين لايحاول أن يتخلص من المكان ولا من الجسد ، ولا يقوم برحلات طويلة ولا يدخن القنب في سبيل هـذا التخلص ، ولا يذهب إلى بيت الساحر حيث تذبح الفتاة المسحورة « زاهدة » ليقول له رأسها المقطوع : « من هي شهرزاد ؟ » ولا يأبق في النهاية من شهرزاد ومن الدنيـا جميعا إلى حيث لا يعلم مصيره أحد ، كما صنع توفيق الحكيم بشهرياره المسكين !

« شهريار » طه حسين أطوع وآنس ، وشهرزاد » طـه حسين تملك من أمر شهريارها أن ترده عن التعلق بالسماء ، وأن ترشده وتبصره وتقود زمامه في النهاية إلى حيث تشاء ، فلا يأبق إلى حيث لا يعلم مصيره أحد كشهريار الحكيم !

وشهرزاد توفيق الحكيم تحاور شهريارهـا حواراً فلسفياً مرة ، وتحاول أن تهبط بـه إلى الأرض مرة ، وأن تنقذه بإثارة غرائزه مرة ... ولكنه يأبق إلى غير عودة . أما شهرزاد طه حسين فتعيد على شهريارها قصة كقصص ألف ليلة وليلة عن الملك « طهمان بن زهمان » ملك الجن وابنته « فاتنة » فيها جو « ألف ليلةوليلة » وفيها نسقها . ولكن بها بعد ذلك توجيهات اجتماعية وسياسية وفكرية حساسة ،

بل شديدة الحساسية . تقص شهرزاد هـــذه القصة على خمس ليال ولكن في « الأحلام » لا في العيان !

وهي لاتقص على شهريار — في الأحلام — هذه القصة فحسب ، إنمـا هي تحاوره الحوار الفكري مرة ، وتحاول أن تهبط به إلى الأرض مرة ، وتقوده في زورق يسبح في النور والموسيقى والمـــاء مرة ... وهناك تعرض له مناظر فاتنة محيّرة تزيد لغزها في نفسه تعقيداً ، فهؤلاء عذارى مرحات مشرقات يسبحن بزوارقهن ، والجو باسم والنفوس مرفرفة . أولئك هن الناجيات من شهريار . . . وهؤلاء عذارى محزونات كاسفات يسبحن بزوارقهن والجو قابض والصدور مثقلة . أولئك هن الهالـكات على يد شهريار .

شهريار طه حسين قريب الشبه بشهريار توفيق الحكيم في الانقلاب الذي طرأ عليه وفي أثر شهرزاد وأحاديثهافي نفسه ، وشهرزاد طه حسين قريبة الشبه بشهرزاد توفيق الحكيم فيما عــدا جانبها الغريزي الذي تصوره علاقتها بالعبد . ولكن الأمر — في الحوادث — يأخذ بعد ذلك في الاختلاف .

فأما توفيق فيمضي على طريقته وطبيعته وملابسات حياته وأثر المرأة في نفسه ، فاذا شهريار لايهبط الأرض أبداً وإن لم يبلغ السماء ، ولا يستمع إلى شهرزاد ولا يستنيم لهـا كالطفل إلا في لحظات الضعف ، ريثما يعتاده نفاره القديم ! ثم إذا هو يأبق في النهاية إلى غير أوبة حتى الآن !

وأما طه فيمضي كذلك على طريقته وطبيعته وملابسات حيـاته وأثر المرأة في نفسه ، فاذا شهريار يستمع إلى شهرزاد ويركن إليهـــا ويستريح إلى صحبتها ويلتذ توجيهها وإرشادها ، وإذا هي تعنى به في نومه ويقظته ، وفي حركاته وسكناته حتى لتوطىء له الفراش وتسنده بالحشايا !

ثم إذا هي تقص عليه في الأحلام قصـــة تخوض فيها في السياسة والاجتماع والحكم كما تشاء !

★ ★ ★

من قصيدة العقاد ومن مسرحيــة شهرزاد ، ومن قصة أحلام شهرزاد ، تتبين ثلاث طبائع وثلاث طرائق ، وثلاثة مظاهر لتأثير نوع الحياة وملابساتها ، في طبائع الفنانين وطرائقهم . فالعقاد في قصيدته هو الأديب المحلل للنفس الانسانية في الحياة وللحالات النفسية في تطورها وتتابعها ، العليم بمداخل هذه النفس ودروبها ومنعرجاتها ؛ المتيقظ لمزايا المرأة على اختلافها !

وتوفيق الحكيم في تمثيليته هو الفنان المعنّى بمسائل الذهن والفلسفة ، المنعزل عن الحياة الواقعة وملابساتها ، المبهور بالمرأة ، الحذر المتخوف منها ، الغامض المبهم الذي لا يصل بشيء إلى نهاية ، ولا يحسم في أمر برأيه !

وطه حسين في قصتــه هو الأديب المشغول بمســائل المجتمع والحكم والسياسة الضارب في حياة الاجتماع بسهم ، المستروح بالمرأة وأثرها اللطيف في حياة الفرد وحياة المجتمع ، وتوجيه الفرد وتوجيه المجتمع !

واستعراض أعمال الأدباء الثلاثة جميعاً يستطيع أن يعطينا مثل هذه الصورة في وضوح وتفصيل ، ولكنه لا يزيد كثيراً على طبيعتها الحقيقية (١) .

---

(١) اقرأ بتوسع كتاب « المذاهب الفنية المعاصرة »